الصور الجمالية للتمثيل للمؤمن
في
السنة النبوية

الباحث

د.عز الدين كشنيط الجزائري

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الرسول(ﷺ) عربي صميم، ولد في أمّ القرى ؛ قبلة كل فصيح ، وسوق كل بليغ من الكلام، رضع الفصاحة في بادية بني سعد، ثمّ أيده الله تعالى فخصّه بجوامع الكلم، وأغدق عليه من مائدة الكلام المعجز، فنهل منها ما لم يشاركه فيه أحد؛ فلا عجب أن يختصّ (ﷺ) بمفاتيح القلوب ، فتجتمع له ناصية البيان من أطرافها سليقة وطبعا، وقد بُعث النّبي (ﷺ) إلى قوم أكثرهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون، فليس تنفعهم النظريات الفلسفية الجافّة، ولا نكت الحضارات والشعوب السالفة، وإنّما يفهمون ما يعرفون مما يُقال لهم من الأساليب التي يألفون، وأقرب المعاني وضوحا إلى عقولهم ما يستند إلى الاستدلال بما يحسّون، مما يسمعون أو يبصرون أو يتذوّقون .

وقد علم نبيّنا الكريم (ﷺ) منهم هذا المسلك، فمثّل لهم كثيرا من معاني هذا الدين وحقائق هذه الحياة بما يُحسُّ ويُدرك .

ولمّا كانت غايته (ﷺ) من دعوتهم هو تزكيتهم، وتحليتهم بما يُرضي الله عز وجل من صفات الكمال؛ صوّر لهم شخصيّة المؤمن المُرتضى في أبدع تمثال، وصوّر لهم مثاله بما يعهدون من محسوسات ، وكأنّه (ﷺ) يرسم لهم لوحات لشخصيته.

إن استخدام التّشبيه بأنواعه وسيلة فنّية في الحديث النبوي، وقد اتّخذ قوالب متنوعة، وكان أكثر الوسائل استخداما؛ لاتّسامه بالوضوح الذي هو شأن الشّريعة المحمّدية والفنّ النّبوي، لأن الصّورة التشبيهية تضع قارئها أو سامعها قبالة منظر واضح المعالم، بيّن التّقاسيم، بارز الأبعاد ، مجسّدة كل التفصيلات الداخلية بالألوان والمحسوسات الأخرى[1] .

وقد تنبّه عبد القاهر الجرجاني قديما إلى خصوصية التّشبيه، وتملّكه ناصية البيان فقال:" ليس كل شيء يجيء مشبّها به بكافٍ، أو بإضافة (مثل) إليه يجوز أن تسلّط عليه الاستعارة، وتنفّذ حكمها فيه حتّى تنقله عن صاحبه وتدّعيه للمشبّه، على حدّ قولك: أبديت نورا ساطعا تريد علماً، وسللت سيفا صارما تريد رأيا نافذا، وإنّما يجوز ذلك إذا كان الشّبه بين مما يقرب مأخذه، ويسهل متناوله "[2] وقد ستشهد لفكرته هذه ببعض الآثار.

([1]) ينظر جماليات الأسلوب، د. فايز الداية: ص١٤٣.مطبوعات جامعة حلب، ١٩٨٢م

([2]) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ص٢٤٣.قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، ط١/ ١٩٩١، جدة.

وهذه بعضٌ من تلك الأحاديث التي تعكس ذلك الفنّ النّبوي، وقد اكتفيت هنا بما وقع في الصّحيحين، مما له في التمثيل للمؤمن لفظٌ صريح، مبيّنا ما استطعت استجلاءه من معانيها السّامية، ولفتاتها البيانية، وصورها الفنّية، مستأنسا في شرحه أو توجيه معانيه بما يقاربه معنا مما في الصّحاح أو مما وقع في غيرها، والله المستعان وعليه التّكلان.

المطلب الأول : **التمثيل لعلاقته بالقرآن** :

أخرج البخاري في صحيحه عنْ أبي مُوسى عن النبيّ (ﷺ) أنّه قال:

" مثَلُ[1] الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كمثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها طيِّبٌ ومثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآن مثَلُ التَّمْرَةِ لا ريحَ لَها وطَعْمُها حُلوٌ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كمَثَلِ الرَّيْحانَةِ رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مُر ومَثَلُ المُنافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كمَثَلِ الحَنْظَلَةِ؛ ليْسَ لَها رِيح، وطَعْمُها مُر"[2] .

لمّا كان القرآن الكريم هو القول الفصل والفرقان بين أهل الكفر وأهل الإيمان، افترق النّاس إلى طوائف تناسب مواقفهم منه وعلاقاتهم به، ولبيان أثر تلك العلاقة في نفوس المجتمع الإسلامي، مثّل النبيُّ (ﷺ) أصناف الناس تجاهه بهذا التمثيل البديع، وقد اختار لكلّ صنف منهم ما يناسبه من المشبّهات؛ وقد بدأ النبيّ (ﷺ) تمثيله هذا بعبارة معتادة من القرآن الكريم، وهي (مثل ... كمثل) ، وكأنّما في ذلك إشارة حيّة إلى أن هذه الحكمة مستقاة من ذلك الهدْي، وأنّ هذا البيان هو من ثمار التّلمذة لذلك البيان المعجز.

فبدأ بأكملهم صفة، وأشدّهم علاقة بالقرآن، وهم الصّنف الذين وصفه القرآن فقال:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (البقرة من الآية١٢١) ، هذا الذي يقرأ القرآن، ويعمل به كما تفيده الرّواية الأخرى (يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَعْمَلُ بِهِ)[3] ، هو كالأرض الطيبة النقيّة، التي وصفها رسول الله (ﷺ) بأنّها قبلت الغيث، فانتفعت به ونفعت غيرها، مثّله النّبيّ (ﷺ) هنا بالأترجّة[4] ؛ وقد أطنب شرّاح هذا لحديث في بيان محاسن هذه الفاكهة؛ فقالوا لأنها أفضل ما

---

(1) قال الجوهري:"مثل: كلمة تسوية. يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال شبهه وشبهه بمعنى... والمثل ما يضرب من الأمثال انتهى. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤/ القاهرة ١٤٠٧-١٩٨٧: ١٨١٦/٥.

(2) أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري في باب ذكر الطعام، صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر / بيروت، ط ١٤٠١-١٩٨١: ١٠٧/٦ و١١٥و١١٨/٨. وأخرجه مسلم عن أبي موسى أيضا في باب فضيلة حافظ القرآن، صحيح مسلم: ١٩٤/١، ١٣٦/٨.

(3) قال الحافظ ابن حجر:" ووقع في رواية شعبة عن قتادة -كما سيأتي بعد أبواب- (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به) وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي، لا مطلق التلاوة." فتح الباري: ٦٧/٩.

(4) ضبطت بضم الهمزة وسكون التاء المثناة من فوق وضم الراء وتشديد الجيم وقد تخفف ويروى اترنجة بالنون الساكنة بعد الراء. عمدة القاري:٣٨/٢٠، وفيها لغات.. الأترج والأترجة والترنجة والترنج معروف وهي أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب انتهى. تحفة الأحوذي: ١٣٣/٨.

يوجد من الثمار في سائر البلدان، وذكروا الكثير من محاسنها[1]، ولست أتحمّس لمثل هذه المبالغات، وإلا كيف يُضرب القرآن عنها صفحا ليرغب المؤمنين بما هو أدنى منها مرتبة في الدّنيا؟! والذي أفهمه من تمثيله (ﷺ) للمؤمن القارئ للقرآن بها، هو كونها خير من جمع بين خاصتي طيب الطعم وطيب الريح، ربّما في الدّنيا كلّها، أو فيما تعرف العرب من فاكهة على الأقل، وهاتان الصفتان تقابلان ما عليه هذا الصنف من طيب مخبر وبهاء منظر، وما فيه من فائدة في هذه الحياة؛ فيسع خيره القريب والبعيد المخالط، والبعيد على السّواء؛ كما تسرّ هذه الفاكهة آكلها بطيب مذاقها، وشامّها بعبيرها.

وفي تشبيه قراءة المؤمن برائحة الأترجّة تمثيل للمسموع بالمشموم، بجامع إدراك حسنهما من بعيد؛ دون ملامسة أو تذوّق، وفي ذلك إيماء إلى عموم نفع المؤمن القارئ، كالغيث أينما وقع نفع، ينتشر نفعه مثل انتشار عبير الزّهور وأريجها.

ثمّ بيّن عليه الصلاة والسلام حال الصّنف الثاني، بذكر شبيهه في عالم المحسوسات؛ فذكر التّمرة التي يعرفها العربي، ويعرف مذاقها، فلا حلاوة تعادلها بين أصناف الفاكهة، غير أنّ فقدانها صفة الرائحة نزل بها عن مرتبة الأترجة، فاقتصر نفعها للقريب المخالط دون البعيد، وهي في هذه الصّورة أقرب ما تكون إلى الصورة الأخرى في تمثيله (ﷺ) للمؤمن بالبيت الخرب كما سيأتي، ليس في منظره الخارجي بهاء للبعيد غير أنّ الذي يدخله يُسرّ أيما سرور.

وقد ذكروا سبب تخصيص هذا الصّنف بالتمرة في التشبيه؛ فقالوا:" خص صفة الإيمان بالطعم، وصفة التلاوة بالريح؛ لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه"[2] .

فالحلاوة معدن أصيل في هذين الصنفين من النّاس، وأمّا الرّائحة فهي حلية امتاز بها أحدهما على الآخر، على قدر مجهوده وبذله.

وقد وقع التّعبير عن القراءة بصيغة المضارع الذي يفيد التّجدد والتّكرار ليفيد المداومة عليها، فكأنما صارت للأول دأبا له وعادة، كقولهم: فلان يقري الضيف، ويعطي الفقير، ولا

---

(1) قال العيني:" وجه التشبيه بالأترجة لأنها أفضل ما يوجد من الثمار في سائر البلدان وأجدى لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها والخواص الموجودة فيها فمن ذلك كبر جرمها وحسن منظرها وطيب مطعمها ولين ملمسها تأخذ الأبصار صبغة ولونا فاقع لونها تسر الناظرين تتوق إليها النفس قبل التناول تفيد آكلها بعد الالتذاذ بذوقها طيب نكهة ودباغ معدة وهضم اشتراك الحواس الأربع البصر والذوق والشم واللمس في الاحتظاء بها ثم إن أجزاءها تنقسم على طبائع قشرها حار يابس ولحمها حار ورطب وحماضها بارد يابس وبرزها حار مجفف وفيها من المنافع ما هو مذكور في الكتب الطبية. عمدة القاري:٣٨/٢٠، وانظر فتح الباري: ٦٦/٩-٦٧، وتحفة الأحوذي: ١٣٣/٨، وفيض القدير: ٥١٣/٥. وقد يُستساغ ذلك لو أنّ النبيّ (ﷺ) لم يذكر لها صفة، أما وقد اختار من بين كل ما ذكروه هاتين الصّفتين فالأولى المصير إليهما في توجيه وجه الشّبه.

(2) فتح الباري: ٦٧/٩.

يقولون ذلك فيمن فعل ذلك مرّة واحدة، وعليه فإنّ نفيها عن الثاني لا تفيد عدمها البتة، وإنّما تفيد قلّة الاهتمام بقراءة القرآن، وعدم المداومة.[1]

وبعد بيانه (ﷺ) لهذين الصّنفين ومثلهما في أطايب الثمار؛ انتقل بنا إلى بيان الصنفين المقابلين لهما في دنيا النّاس، وما يقابلهما في دنيا النّبات.

فبدأ بأقربهما إلى الأولين؛ وهو صنفٌ شارك الأوّل في صلته بالقرآن فحاز الرّيح وفاز بالمديح، لأن القرآن طيِّب، غير أنّه غفل عن سرّه الطيب، فلم يجاوز الطِّيب حنجرته، ولا اتّصل بقلبه المريض، ولا حصّل بركته، فانقلب بسريرة خبيثة، مثّلتها مرارة الريحانة..ذلك هو مثل المنافق الذي خالف قوله عمله، وأبطن خلاف ما يُظهر، ويقول خلاف ما يُضمر؛ ذكر القرآن جماعته فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ.....هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون٤).

ثم ذكر عليه الصلاة والسّلام أبعدهما عن خصال الخير، فذكر المنافق الذي لا يقرأ القرآن، وشخّص مثاله في نبتة الحنظلة التي عدمت المنفعتين؛ لا ريح لها وطعمها مرّ، وكذلك المنافق الذي لا يقرأ القرآن؛ لا شيء يزين ظاهرَه، ولا باطنُه يُعوِّض ذلك النّقص، وإنّما يزيده سوءا على سوء من خبث طويّته.

وهو في ذلك كما مثّل لنا النبيُّ (ﷺ) جليس السّوء، إذا لم تحرقك ناره، لم تُفلتك أذية ريحه الخبيثة، فأضاف له هنا ميزة اقتضاها موضوع الحديث، وهي أنّ ريحه مؤذية كناره، بينما ذكر هنا أذى باطنه، وذلك من دقة وصفه (ﷺ) فمن شأن جليس السوء طول المخالطة بالمجالسة التي تفضي إلى معرفة صفتيه المؤذيتين، الباطنة والظاهرة، وأمّا المنافق الذي لا يقرأ القرآن فلا يُعرف من ظاهره إلا كما يُعرف من حال المؤمن الذي لا يتلو القرآن، ولا تعرفه حتى تخالطه فتلذعك مرارة سمّه، وتظهر لك ما كان يُضمر من مكنون لؤمه.

وقد أوردوا للحديث فوائد أُخرى، أذكر منها :-

- أن الحديث يُعدُّ مقياساً لكل كلام طيب يرضي الله تعالى، من المؤمن والمنافق، على هذه الصورة في التمثيل المذكور، مع مراعاة الفارق بين كلام الله وكلام غيره.[2]

- وأن تمثيله لأعمال الناس بما يخرجه الشّجر من ثمار، تمثيل دقيق بديع، لأنّ الأعمال هي ثمرات القلوب.

([1]) ينظر عمدة القاري:٣٨/٢٠، وتحفة الأحوذي: ١٣٣/٨.

([2]) ذكره المناوي عن ابن عربي. ينظر فيض القدير: ٥١٣/٥.

- إنّ في تمثيله للمؤمن بما يخرجه الشجر العالي(الأترج، والنّخل)، وتمثيله للكافر بما قرُب إلى الأرض من النّبات(الريحانة والحنظلة)، إعلاءٌ من شأن المؤمن وغضٌ من شأن المنافق وتحقيرٌ لصنيعه.[١]

- وفي تمثيله للمؤمن بالشجر المثمر إيماء إلى وجود من يتعهّده بالعناية من الغرس إلى أن يُثمر وكذلك المؤمن، يقيض له الله تعالى من يعلمه ويهديه، وليس كذلك المعرض عن القرآن الكافر به؛ كالحنظلة المهملة المتروكة.[٢]

- وقال ابن حجر:" وفي الحديث فضيلة حاملي القرآن، وضرب المثل للتقريب للفهم، وأن المقصود من تلاوة القرآن؛ العمل بما دل عليه الحديث الثاني."[٣]

ولننظر الآن إلى الحديث نظرة الجملة الواحدة، واللوحة التي تشكّلها أطياف ألوان هذه الأصناف.

وفي هذا التّصوير انحدار بذكر هذه الأصناف نحو الأسفل، في تسلسل يدلّ عليه تماسك النّص، فيرتقي المؤمنُ القارئ القمّةَ ارتقاء الأترجّة ذات المنظر الجميل، والملمس اللّيّن والطّعم الطّيب والنّكهة المتميّزة، فجمع بين الحلاوة والرّائحة الطّيبة معا، فتوحَّد فيه المضمون والشّكل معا، واستقرّ المنافق غير القارئ في القاع، استقرار الحنظلة التي تنبت في الصحراء ولا تؤكل، بل هي مثلٌ في المرارة، فجمع ما جمعته من مرارة الباطن وفقدان الفائدة فقدانها للرّائحة الطيبة، فهو كلّه شرّ، وكما نزلت مرتبته في أسفل السلّم، وقع ذكره في الحديث في آخر الكلام.

وهكذا تُثار حاسّتا الشّم والذوق بداية من الأترجّة ، ثمّ نجد الصفتين تفرّقتا فيما بعدها؛ فأخذت التّمرة الحلاوة، وأخذت الرّيحانة الرّائحة الطيبة، ثمّ عطف بالحنظلة التي فقدت الجمالين الشّمي والذوقي؛ يقول الدكتور أحمد ياسوف:" وهكذا نجد في الحنظلة حثّا على العودة إلى جمال الرّائحة والطّعم، فالقبيح يُبرز الجميل ويُبلوره، ذلك لأنّ التّضادّ يوضّح سمات الطّرفين النّقيضين، والعودة إلى الجمال من الرواكز الداخلية لتماسك النّص."[٤]

ومع هذا الانحدار المذكور استعمل الحديث سمة هندسية في بناء الفكرة، وذلك ببنائها في قالب متناظر متناقض؛ تناقض المرارة مع الحلاوة، وتناقض وجود الرائحة الطيبة مع انعدامها.

غير أنّه لم يناقض بين الصنفين من كل وجه، فقد يشترك أحدهما مع الآخر في طيب الرّائحة كالأترجّة والريحانة، وقد يشتركان في فقدانها كالتمرة والحنظلة، غير أن الحديث

---

(١) ينظر عمدة القاري:٣٨/٢٠.
(٢) ينظر فيض القدير: ٥١٣/٥-٥١٤.
(٣) فتح الباري: ٦٧/٩.
(٤) الصورة الفنّية في الحديث النّبوي الشّريف: ص٥١٧.

ينصّب حلاوة الباطن فيصلا بينهما، وقد نجد لهذه القسمة انعكاسا في تصنيفه (ﷺ) لأحكام لأعمال بقوله: (الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس.)، والمشتبه قد يكون في جانب الحلال كما يمكن أن يكون في جانب الحرام.

وأنت ترى هنا أنّه (ﷺ) استعمل النبات أو الفاكهة لا للغاية الاستهلاكية المعتادة عند الناس، وإنما توسّل بها لينهض بأذواقهم عن مهمّة الغذاء، ويشخّص لهم المعاني السّامية، في خير ما يعرفون، ويبين لهم سفاسف الأمور في شر ما يستقبحون.

فهو يمكّن في إثارة حاسّة الشّم لدى الكلام عن رائحة الثّمار، والشّم أرقى من التّذوّق، لأنّه يدلّ على رهافة شعور، كما يصوّر بُعداً مكانيا أو وسيطا.[1]

يقول الدكتور ياسوف في الوجه في تمثيل الصوت بالرّائحة الزكية:" أنّ قراءة القرآن الكريم ...ظاهرة حسّية اقترنت بالشّم لتتّخذ مساحة، لأنّ الأصوات القرآنية تتمدّد مع الأثير، وتصل بأنفاسها المنعشة إلى المجاورين كالرّائحة الطّيّبة، وهذه الإحساسات الواضحة عند المتلقّين لا تقوم على مصادفة، مما يبهمها عليهم، فهي روائح ومذاقات مقرّرة الفاعلية استخدم فيها النّبات منبّها، وهو من المشاهدات الطّبيعية التي لا يختلف اثنان في جماليّتها."[2]

وفي استعماله الرائحة الطيبة المنتشرة في الجوّ للتمثيل لقراءة القرآن تعظيم لشأنه، أيّاً ما كان مخرجه، فهي تبادر البعيد فتسعده قبل أن يقترب، ولا شكّ أن الرّائحة سابقة للطّعم في التّذوّق الجمالي.

وتلك الرائحة الطيبة هي صفة المؤمن تظهر في فضائله من بعد، لأنّه يُسمع غيرَه جمالَ أصوات القرآن، تلك الأصوات التي تجلّت مشمومة فغدا اتّساع الذبذبات الصّوتية انتشارا فضائيا لذرات الرائحة الحسّية الطّيبة وهذا مثير للخيال، وفي صدره من الإيمان ما يمثّله طيب المذاق، وعندما يتذوّق المرء شيئا يدخله في إطار جسمه، ويختلط بذراته.

وأمّا استعمال جمال رائحة الرّيحانة في المنافق؛ فلأنه يمثّل الجمال الصّوتي في القرآن، والذي لا ينكر أياً كان مصدر قراءته، ففضيلة هذا الصنف تنحصر في إسماع غيره هاتيك النّغمات، أو تذكيرهم بمضامين القرآن، فثمّة تأثير إيجابي لقراءة القرآن في كل حال.[3]

وههنا لطيفة من لطائف أسلوبه عليه الصلاة والسّلام، إذْ كأنّما في المعنى من الوفرة ما لا يكفي في إدراكه ما يختص به عادة من الحواس، ليتعدّى إلى حواسّ أخرى.

وهو تمثيل بليغ استعمله كبار الأدباء من بعده (ﷺ)؛ كقول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وكأن السّمع وحده عير كافٍ للإحساس بجمال القراءة فأعانته حاسة الشّم.

([1]) ينظر المرجع نفسه: ص٣٣٧.
([2]) المرجع نفسه: ص٥١٧.
([3]) ينظر المرجع نفسه: ص٣٣٨-٣٣٩.

وأما الحنظلة فهي فاقدة النّفع المباشر، وليس فيها إلا القبح، فكانت أليق بالمنافق الذي لا يفيد ولا يستفيد، بل إنّ نباتها في الأرض دون الشّجر يومئ إلى دونيّة المنافق.[1]

يقول الدكتور أحمد ياسوف:" والحديث لوحة ذات أربعة مشاهد أو حلْقات وشرائح تمثّل المجتمع الإسلامي:

مشهد الأترجّة- المؤمن، مشهد التّمرة- المؤمن، مشهد الريحانة- المنافق، وقد أسهم تشكيل التّصعيد في وحدة عضوية الكلام وكأنّه حلقات متّصلة، يؤدي الأولى إلى الأخرى، حتّى تتشكّل حلقة واحدة كما في الشّكل المرسوم هنا، فالأترجّة تتصل بالتّمرة بقاطع الطعم، والتّمرة تتصل بالحنظلة بقاطع الطعم وفقدان الرائحة، والحنظلة تتصل بالريحانة بالطّعم، والريحانة تتصل بالأترجّة بقاطع الرائحة."[2]

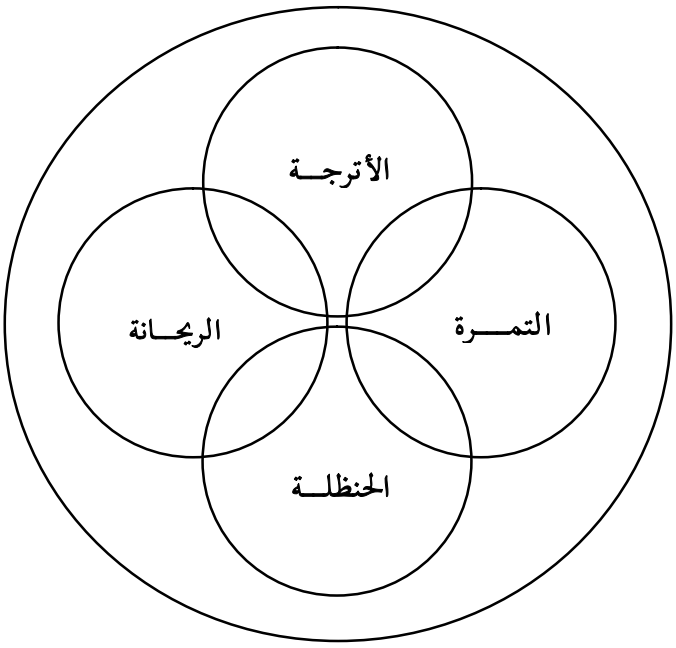

([1]) ينظر المرجع نفسه: ص٣٣٧.

([2]) المرجع نفسه: ص٣٣٩.

المطلب الثاني : التمثيل لخيريته :

أخرج البخاري من حديث ابنَ عُمَر (ﷺ) أنَّ النبيُّ (ﷺ) قال: " مثلُ المُؤْمِنِ كَمَثَل شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لا يَسْقُطُ ورَقُها، ولا يَتَحاتُّ[1] ، فقال القَوْمُ : هِيَ شَجَرَةُ كَذا، هِيَ شَجَرَةُ كَذا، فأرَدْتُ أنْ أقُولَ هِيَ النَّخْلَةُ -وأنا غُلامٌ شابٌّ- فاسْتَحْيَيْتُ، فقال: هيَ النَّخْلَةُ."[2]

وزادَ في الرواية الأخرى: " فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فقال لَوْ كُنْتَ قُلْتَها لَكانَ أحَبَّ إلَيَّ مِنْ كَذا وكَذا."[3]

يقول تعالى : ﴿هو الذي بعث في الأمّيين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم وعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ .

ولنبيّنا الكريم حظه الوافر من هذا الفن الجامع بين الإقناع والإمتاع معا، فمن حكمته (ﷺ) في تربية الجيل المربي تلطّفه بهم في التّرقي في مراتب العلوم الدينية من أقرب المسالك، ولا شيء يسرع بذلك عند عموم الخلق من قصّ القصص أو ضرب الأمثال؛ فحشا بواطن الناس بمشاعر الرقّة والعطف والحنان والنّصح لأهل الإيمان والغيرة على حرمات المسلمين، وكسا ظواهرهم بحلي الأعمال الصالحة، وجاهد الليل والنّهار، حتّى ألحقهم بمراتب الأبرار، وكان يقرّب لهم المعاني البعيدة بالأمثال القريبة القريبة من مداركهم، فصوّر لهم شخص المؤمن هنا مجسّدة فيما يألفون ...النّخلة...وفيها من الخير ما يعرفون... وهي شجرة تعرفها أكثر شعوب الدنيا.

لقد كانت هي والنّاقة زاد العربي في صحاري الجزيرة العربية، فلا يستغرب ما خصّها به النّبي (ﷺ) من كرامة في أحاديثه، ولم ترد صورة النّخلة في الحديث النّبوي إلا في مقام المدح والفضائل والتّرغيب، ولقد شرّفها النّبيّ (ﷺ) حينما جعلها مثلا للمؤمن، خير ما يحبّ الله في مخلوقاته[4]، وكلّ ذلك من فرط كرمها الذي تغمر به النّاس، وندرة ما يمسّهم منها من سوء.

ولقد أتى تشبيه النّبي (ﷺ) للمؤمن بها دون تقييد ذلك الشّبه بشيء من صفاتها، وليس في ذلك معنى مطلق المماثلة، وإنّما فيه إشارة إلى كثرة ما فيها من خصال الخير للنّاس؛ من

---

(1) قال الرامهرمزي"قوله لا يتحات ورقها يعني لا يتساقط كما يتساقط ورق الشجر وورقها خوصها وأصل الحت الفرك قال الشاعر:

تحت بقرنيها برير أراكة وتعطو بظلفيها إذا الغصن طالها

وسمي الخوص ورقا كما سمي النخلة شجرة." أمثال الحديث: ٧٠/١.

(2) صحيح البخاري: ١٠٠/٧-١٠١.

(3) من حديث باب مثل المؤمن مثل النخلة، صحيح مسلم: ٤ / ٢١٦٤.

(4) قال الرامهرمزي:" والنخلة سيدة الشجر ضربها الله تعالى مثلا لقول لا إله إلا الله فقال مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ومثلها (ﷺ) بالرجل المؤمن القوي في إيمانه المنتفع به في جميع أحواله والعرب تعظمها ويكثر في أشعارها ذكرها." أمثال الحديث: ٧٠/١.

سعفها إلى نوى تمرها؛ فهي رمز للنّفع والعطاء غير المشروط، وقد وقع التّصريح بسبب هذا التّمثيل البديع في رواية الطبراني، وفيها:" مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك."[1]

وفصّل في ذلك ابن حجر فقال:" وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعا، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النّوى في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته."[2]

وقد ذكروا أن الحديث ذكر بعد تلاوته (ﷺ) لقوله تعالى:﴿ **ضرب الله مثلا كلمة طيبة**﴾ فأورده البخاري في تفسيرها إشارة منه إلى أن المراد بالشجرة النخلة[3] ، قال الحافظ ابن حجر: "وقد ورد صريحا فيما رواه البزار من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن بن عمر قال قرأ رسول الله (ﷺ) فذكر هذه الآية فقال أتدرون ما هي قال بن عمر لم يخف على أنها النخلة فمنعني أن أتكلم مكان سني فقال رسول الله (ﷺ) هي النخلة."[4]

والحقّ أن في الآية تمثيل للكلمة الطّيبة لا للمؤمن، فيكون هذا الحديث من باب التفريع في التمثيل للمؤمن؛ حامل تلك الكلمة، بما مثّل به القرآن لها.

ولمّا كان التشبيه هنا بهذا الإطلاق؛ ذهبت فيه الأفهام كلّ مذهب، وحمّلوه وجوها منها ما يعرف حسنه ومناسبته، ومنها ما يُستغرب:

- فمنهم من أطلق في ذلك -على مقتضى إطلاق الحديث- فقال بأنّ وجه الشبه هو كثرة خيرها، ومنافعها من كل الجهات.[5]

وقد ذكر النووي الكثير مما ذكره العلماء في تشبيه المسلم بالنّخلة فقال:" وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام؛ فانه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس، يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها، وورقها، وأغصانها، فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا ومخاطر وحصرا وحبالا وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها؛ وينتفع به علفا للإبل، ثم جمال نباتها، وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها، وخير وجمال؛ كما أن المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه؛ ويواظب على صلاته وصيامه، وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات، وغير ذلك، فهذا هو الصحيح في وجه التشبيه."[6]

---

(1) أخرجه الطبراني عن ابن عمر وقال الحافظ ابن حجر: وإسناده صحيح، فتح الباري: ١/ ١٤٧

(2) فتح الباري: ١/١٤٥-١٤٦.

(3) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الفكر/بيروت، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بأسطنبول، ١٤٠١هـ: ٥/ ٢١٩-٢٢٠.

(4) فتح الباري: ١/١٤٦.

(5) ينظر عمدة القاري:٢٢/١٦٦-١٦٧.

(6) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧/١٥٤.

- ومن أحسن التفصيلات في تلك الوجوه ما أفادته الآية التي أسّست لهذا التّشبيه، والشاهد منها وصف الشّجرة المذكورة فيها بقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء ۞ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾(إبراهيم ٢٤-٢٥)[١] وهذه أربع صفات، أرجّح كونها أهم أوجه الشّبه الممكنة من ذلك الإطلاق؛ وهي الطيبة، وثبات الأصل، وسمو الفروع وشموخها، وتجدّد خيرها تجدّد الزّمان.

فأمّا ما وُصِفت به من الطيبة فليست عن هذه الشجرة بغريبة، كيف والعربي يجدها تغمره بأطيب ما تذوّق من الثمار، وزوّدته بما يقيم معاشه، فعمّرت بيته بالأثاث، وأطعمت جياعه، وأعلفت دوابه، وخفّفت وطأة حر الشّمس عليه بظلالها الوارفة، لقد غمرته بالطيبة من كل جانب.

وقد نبّه الدكتور أحمد ياسوف في تعليقه على هذا الحديث إلى ملحظ دقيق في التّعبير النّبوي فقال:" والملحوظ في نصّ الحديثين وفي غيرهما، استعمال صيغة الإفراد المؤنثة؛ مما يوحي برقّة النّخيل، وتذكير بالأمومة المعطاء، فكأنّه عطاء مصحوب بحنان وودّ."[٢]

وأمّا ثبات الأصل يشير صحّة أصوله التي يقوم عليه دينه، وتقوم عليها حياته، فكما أن النّخلة قائمة على أصول ضاربة في أعماق الأرض، تبغي بلوغ معين ماء الحياة، فإنّ المؤمن قائم على أصول تقيم له كيانه، ومع ذلك فهو دائم البحث على المزيد في فروع الشّريعة، متطلّع إلى أصول الأصول.

وأما تطاول فرعها في السّماء، ففيه صورة باهرة لشموخ المؤمن وإبائه وأنفته، وتساميه عن الدّنايا؛ أرجله في ضاربة في رحم الثّرى، وهامته في الثّريا، وإذا كانت فروع النّخلة تتطلّع إلى السّماء طالبة ضوء الشّمس، تُحلّي بها حموضة بلحها، فإنّ المؤمن يتطلّع إليها يتعرّض فيها لأنوار النفحات الرّبانية، ليجد في قلبه حلاوة ذلك الإيمان.

وأمّا إيتاؤها أكلها كلّ حين بإذن ربّها، فإنها سجية المؤمن التي غرسها الله فيه، وشرع لها الزكاة والصدقات وأصناف النفقات، في سبيل الله، قال تعالى في وصفهم:﴿**ويطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا**﴾.

---

(١) روي عن أنس مرفوعا وموقوفا قوله أن (كشجرة طيبة) في الآية هي النخلة، والحديث عند الترمذي؛ قال فيه: هذا حديث حسن غريب صحيح ، ينظر تحفة الأحوذي: ٣٠٤/٩.

(٢) الصورة الفنية في الحديث الشريف: ص٣٢٩.

ومما ذكروا من أوجه الشّبه أنّ ورقها لا يسقط ولا يتحاتّ؛ قالوا ولا تسقط لمؤمن دعوة، مستدلّين ببعض طرق الحديث عن ابن عمر.[1]

وفي هذا الحديث لفتةٌ نبوية إلى خاصية من خواصّ هذه الشّجرة فذكر أنّه (لا يتحاتّ ورقها)؛ وبهاء الشجرة ملازم لأوراقها وجودا وعدما، وإذا كانت أكثر الأشجار تفقد ذلك البهاء فترة كل سنّة، فإن هذه الشجرة الطّيبة تبقى باسقة وارفة الظلال على مدار السّنة بل طول حياتها، وإنّ من كرمه تعالى ورحمته بسكان الصحاري أن أبقى لهم فيئها، لما تعانيه بيئتهم من لهيب حر الشّمس.

وكذلك المؤمن تبقى نظارته ما بقيت فيه الحياة، لأنه كما كان السّر في بقاء نضارة أوراق النّخلة فيما تتلقّاه من رحم الأرض من مواد أساسية للحياة، ثمّ تصنّع ذلك في أوراقها بوساطة ضوء الشّمس، فإنّ المؤمن يستمد تلك النّضارة مما فيه من أصول الإيمان، يقويها ما يتلقاه من هداية وتوفيق النور المنبعث من السّماء.

ومن تلك الأوجه أيضا ما حكاه ابن حجر عن القرطبي؛ أن التشبيه وقع بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت، وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حيا وميتا.[2]

وقد بالغ بعضهم فتكلّف لهذا التمثيل ما يُستغرب من أوجه الشّبه؛ كزعمهم بأنّها تشبهه في كونها إذا قُطع رأسها ماتت، أو لأنها لا تحمل حتى تلقح كما يلقح الآدمية، أو لأنها تموت بالغرق، وقالوا إن لطلعها رائحة من الآدمي، وأنها تعشق، وأنّها خُلقت من فضلة طين آدم وغير ذلك مما لا يؤيده نقل، ولا يستسيغه عقل.[3]

وعلى الجملة فإنّ الحديث في عمومه يرمي إلى بيان ثبات الفكر والمعتقد والأصول التي تقوم عليها النّفس المؤمنة لطول ثبات الأصول التي تقوم عليها هذه الشّجرة وبقائها حتى بعد مما -كما هو معهود-، ويريد بيان الطيبة والخيرية الثابتة للمؤمن ثبات أصوله، كطول ثبات ذلك في النخلة، ويريد الإشادة بطلّته البهيّة، وبهاء الإيمان في وجهه، وشموخه لاقترانه بشجرة عالية، وإنّها لترمز إلى العطاء، وهكذا صارت النّخلة بجزئياتها المشوّقة قبل معرفتها تنسكب على المؤمن وتجسّد خصاله الكريمة.[4]

---

(1) استندوا على ما رواه الحارث بن أبي أسامة في هذا الحديث من وجه آخر عن بن عمر ولفظه قال كنا عند رسول الله(ﷺ) ذات يوم فقال:" إن مثل المؤمن كمثل شجرة؛ لا تسقط لها أنملة، أتدرون ما هي؟ قالوا: لا، قال: هي النخلة؛ لا تسقط لها أنملة، ولا تسقط لمؤمن دعوة." ذكره الحافظ في الفتح ولم يبين حاله: فتح الباري: ١٤٥/١.

(2) فتح الباري:١٤٧/١.

(3) ينظر رد الحافظ ابن حجر لهذه الأقوال وتضعيفه إياها، فتح الباري: ١٤٧/١.

(4) ينظر الصورة الفنية في الحديث الشريف: ص٣٢٩.

وقد نبّه الحديث الثاني "**مثل المؤمن** مثل النخلة ما أخذت منها من شيء نفعك"[1] على إثبات الإطلاق الذي تضمّنه الحديث الأول، فبيّن من عموم نفع النخلة ما جعلها رمزا للنّفع والعطاء، واتّخذها للمؤمن مثلا يحتذى في السّعي إلى مراتب الكمال الخلقي.

المطلب الثالث : التمثيل لحاله مع الدنيا :

أخرج البخاري عنْ عبْدِ الله بنِ كَعْبٍ عنْ أبِيهِ عَنِ النبيِّ (ﷺ) قال:" مَثَل المُؤْمِنِ كالخامةِ مِنَ الزَّرْعِ تُفيِّئُها الرِّيحُ مَرَّةً وتعْدِلُها مَرَّةً ومَثَلُ المُنافق كالأرْزَةِ لا تَزَالُ حتَّى يَكُونَ انْجِعافُها مَرَّةً واحِدَةً."[2]

وأخرج أيضا من حديث أبي هُرَيْرَةَ (ﷺ) عن رسولُ الله(ﷺ) أنّه قال: " مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخامَةِ مِنَ الزَّرْعِ منْ حَيْثُ أَتَتْها الرِّيحُ كَفَأَتْها فإذا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بالبَلاءِ والفاجِرُ كالأرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حتى يَقْصِمَها الله إذَا شاءَ."[3]

كالخامة: بالخاء المعجمة وتخفيف الميم[4]: هي الغضة الرطبة من النبات أول ما ينبت[5]، وفي اللسان أنها الغضّة الرّطبة من النبات، وذكر عن ابن الأثير بأنها الطاقة اللينة، وأنّ ألفها منقلبة عن واو[6]، وقد وقع في رواية لأحمد بأنها السنبلة[7] .

تُفيِّئُها: قال في اللسان:" والريح تفيىء الزرع والشجر تحركهما وفي الحديث مثل المؤمن كخامة الزرع تفيئها الريح مرة هنا ومرة هنا وفي رواية (كالخامة من الزرع من حيث أتتها الريح تفيئها) أي: تحركها وتميلها يمينا وشمالا."[8] وقال:" وفيأت المرأة شعرها حركته من الخيلاء."[9] وقال العيني:" ومادته فاء وياء وهمزة وأصله من فاء إذا رجع وأفاءه غيره إذا رجعه، ...وفي رواية أبي ذر تفيأها بفتح التاء والفاء."[10] وقال المناوي:" وأصل التفيئة إلقاء الفيء على الشيء، وهو الظلّ؛ فالريح إذا أمالتها إلى جانب ألقت ظلها عليه."[11]

---

(1) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق السلفي، دار إحياء التراث العربي ومكتبة ابن تيمية / القاهرة: ٣١٣/١٢-٣١٤.
(2) أخرجه البخاري عن عبد الله بن كعب عن أبيه، صحيح البخاري: ٢/٧.
(3) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، صحيح البخاري: ٣/٧.
(4) قال ابن حجر:" ونقل بن التين عن القزاز أنه ذكرها بالمهملة والفاء، وفسرها بالطاقة من الزرع، ووقع عند أحمد في حديث جابر (مثل المؤمن مثل السنبلة)؛ تستقيم مرة، وتخر أخرى، وله في حديث لأبي بن كعب (مثل المؤمن مثل الخامة تحمر مرة وتصفر أخرى)" فتح الباري: ١٠٦/١٠.
(5) ينظر غريب الحديث لابن الجوزي: ٢٥٩/١.
(6) ينظر لسان العرب: ١٩٢/١٢، وعمدة القاري:٢١٠/٢١.
(7) مسند أحمد: ٣٤٩/٣-٣٨٧، قال الهيثمي:"رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وفيه كلام، ورواه البزار ورجاله ثقات، وروي عن أنس بن مالك وفيه فهد بن حبان وهو ضعيف ورواه البزار وفيه عبد الله بن سلم صاحب السايرى ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ١٥/٣.
(8) لسان العرب: ١٢٥/١.
(9) لسان العرب: ١٢٥/١.
(10) عمدة القاري: ٢٠٩/٢١.
(11) فيض القدير: ٥١٣/٥.

كَفَأَتْها: قال ابن حجر:" كفأتها بفتح الكاف والفاء والهمز أي أمالتها، ونقل بن التين أن منهم من رواه بغير همز ثم قال كأنه سهل الهمز وهو كما ظن والمعنى أمالتها."[١]

الأرزة : قال أبو عبيد:" الأرزة عندي ...إنما هي الأرزة بتسكين الراء؛ وهو شجر معروف بالشام، و قد رأيته يقال له الأرز، واحدتها أرزة، وهو الذي يسمى بالعراق: الصنوبر، وإنما الصنوبر ثمر الأرز؛ فسمى الشجر صنوبرا من أجل ثمره."[٢]

انْجِعافُها: قال أبو عمرو بن العلاء:" الانجعاف: الانقلاع؛ ومنه قيل: جعفت الرجل إذا صرعته؛ فضربت به الأرض."[٣] وقال العيني:" انجعافها أي انقلاعها؛ قاله ابن سيده، وقال الداودي: يريد كسرها من وسطها، ومادته جيم وعين مهملة، وفاء؛ يقال: جعفته فانجعف، مثل: قلعته فانقلع."[٤]

المعنى العام للحديث:

قال أبو عبيد :" والمعنى فيما نرى أنه شبّه المؤمن بالخامة التي تميلها الريح لأنه مرزأ في نفسه وأهله وماله وولده وأما الكافر فمثل الأرزة التي لا تميلها الريح والكافر لا يرزأ شيئا حتى يموت فإن رزى لا يؤجر عليه فشبه موته بانجعاف تلك حتى يلقى الله بذنوبه جمة."[٥]

- أورد العيني قول المهلّب في معنى الحديث فقال:" معنى هذا الحديث أن المؤمن من حيث جاءه أمر الله انطاع له ولان له ورضي به وإن جاء مكروه رجا فيه الخير وإذا سكن البلاء اعتدل قائماً بالشكر لربه على البلاء بخلاف الكافر فإن الله عز وجل لا يتفقده باختبار بل يعافيه في دنياه وييسر عليه أموره ليعسر عليه في معاده حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه قصم الأرزة الصماء ليكون موته أشد عذاباً عليه وألماً."[٦]

- وقال المناوي:" أي هو كثير الآلام في بدنه وماله فيمرض ويصاب غالبا ويخلو من ذلك أحيانا ليكفر عنه سيئاته بخلاف الكافر فإن الغالب عليه الصحة كما مر ليجيء بسيئاته كاملة يوم القيامة."[٧]

---

(١) فتح الباري: ١٠/١٠٧، وينظر عمدة القاري:٢١/٢٠٩.
(٢) غريب الحديث لابن سلام: ١/١١٨.
(٣) غريب الحديث لابن سلام: ١/١١٧.
(٤) عمدة القاري:٢١/٢٠٩.
(٥) غريب الحديث لابن سلام: ١/١١٨.
(٦) عمدة القاري:٢١/٢١٠.
(٧) فيض القدير: ٥/ ٥١٢.

هذه مجمل أقوالهم في المعنى العام لهذا الحديث، ولْنرجع فيه البصر الكرّة بعد الأخرى لنتذوّق بعض بدائعه، وسحر بيانه:

إن الفكرة التي استدعت التمثيل للمؤمن هنا بالزّرع تختلف عن التي في حديث النّخلة؛ الفكرة هنا هي التمثيل لحياة المؤمن وتقلبات أحواله في هذه الحياة، وذلك ما نشاهده في الحياة، ولعلّه ما أشار إليه النّبي(ﷺ) في حديثه الآخر من أن المؤمن يُبتلى على قدر إيمانه.

وتلك منحة إلهية عظيمة لأولي الصّبر منهم، فهي سلّمهم إلى معالي الخصال وعوالي الدرجات في الجنان.

بينما يأخذ الكافر حقّه من النّعيم في الدّنيا فتراه شامخا متعاليا، تعجبك أجسادهم، عامرة بلادهم.

ومن هنا اختار النبي(ﷺ) للمؤمن مثالا للتواضع، تشاطر الحياة حلوها ومرّها، فإذا ابتليت لانت وانحنت وصبرت، وإن تعافت انتصبت وشكرت، حتى إذا حان أجلها أخذت بأيدٍ حانية، وانقلبت في عيشة راضية.

وأمّا الكافر فيمده الله تعالى بما يناسب عتوّه وغروره، من مظاهر الكبرياء والتعالي على الخلق والحق، ويمدّ في عمره زيادة في الإعذار، حتى إذا استوى أخذه الله أخذة رابية.

فمن دواعي اختيار كلمة (الزرع) -إذن- أنّ الزرع ضعيف مستضعف، والشّجر قويّ مستكبر متعاظم، فالشّجر لا يتأثر من حرّ وبرد ولا من كثرة قاع، ولا مزرع، والزرع بخلاف ذلك.

ونعود فنقول إن هذا الريح من ذاك العود، فد مثّل رسولنا الكريم(ﷺ) للمؤمن بما مثّل به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾(الفتح٢٩).

ومن ذلك ما أشارت إليه الآية من تآزر الزرع بخلاف الشجر؛ فإنّك من بعيد تراه متآزرا فإذا وافيته ألفيته مشتتا كالذي ذكر تعالى من أوصاف المنافقين: ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتّى﴾.

وفي الزّرع فائدة عظيمة لأهله عند موته، فهو مؤونة الآدميين وغذاء أبدانهم، وسبب حياة أجسادهم، وكذلك المؤمن لا ينقطع خيره بموت أبداً؛ فإما صدقة جارية أو علم نافع أو ولدٌ صالحٌ يدعو له؛ كل هذه تنفع الناس من بعده وتنفعه في قبره.

وليس في الصنوبر ما يضاهي تلك الفائدة، كالكافر الذي ذكر النّبي(ﷺ) أن الخلائق تستريح منه عند موته.

هذا وقد توافق في الحديث وضوح المعاني مع جمال التّصوير والإيحاء، والحديث يقوم عل التّمثيل الذي هو نوع من التّشبيه، والوجه فيه عقلي، وفيه مشهدان يكوّنان لوحة، ونحن نتلمّس الحركة، ونتصوّر كيف تحرّك الريح النّبتة، وتعيدها إلى حالها، وكيف تكسّر الأرزة رأسا، والصّبر هنا متجسّم في التّكيّف المتعب الشّاق مع الرّيح، وقد اختار الانحناء، لأنّه حركة مؤقّتة، والابتلاء مؤقت كما اقتضت الحكمة الإلهية والرّبوبية الرّاحمة.[١]

يقول الدكتور أحمد ياسوف:" والحق إنّ إبراز وجه الشبه ... يعني إتماما لعناصر الصورة، وفيه تحويل من المقارنة إلى الدّمج، فنحن لم نعد نتصوّر حركة الزّرع وحده، بل صرنا نسكب هذه الحركة على شخصية المؤمن الصّابر."[٢]

---

(١) ينظر الصورة الفنية في الأحاديث النّبوية الشّريفة: ص١٥٣.
(٢) المرجع نفسه: ص١٥٣.

الخاتمة

والذي نخلص إليه مما سلف ذكره ان النّبيّ (ﷺ) قد استعمل التشبيه استعمالا ينوء به عن الثقل، الذي يذكره المحدثون أو بعض القدماء ممن يرى في التشبيه عقما في جانب وفرة المعاني التي توحي بها أساليب أخرى كالكناية والاستعارة، ولقد استعمله (ﷺ) فيما لا تغني عنه استعارة أو كناية بحال...هل يُتصوّر أن يُقال رأيت نخلة أو أترجة أو ريحانة...فيفي بما وفّت، تمثيلاته عليه السّلام، قد يكون في التشبيه والتمثيل بعض طول لما اختصّ به من وظيفة البيان التام عند صاحب الرّسالة، وكذا للإبقاء على بعض الفوارق الأساسية التي تميّز المؤمن عن النّخلة أو الزرع، والكافر عن الأرزة والحنظلة، لكنّه لا يخرج به إلى الثقل في كلّ الأحوال.

كما أنّنا نلمس من تلك الأحاديث رقّة طبع النّبي (ﷺ) وتحسّسه المرهف لمواطن الجمال، في بيئته وفي البيئة المحيطة بالجزيرة العربية.

وقد لمسنا أيضا في كل ما ذكرنا الأثر القرآني الكبير في تدريس محمد (ﷺ)، فيقتدي بأمثاله، ويكرم ما كرّم، ويهين ما يهين، ويستعمل أيضا ما أكثر القرآن من استعماله، كما في (مثل كذا كمثل كذا وكذا).

وفي الختام نستغفر الله من سوء الفهم عن رسول الله، أعلم أهل الأرض، وأفصحهم لسانا، فاللهم هذا الجهد على قدر البضاعة، فبارك فيه واجعله لك طاعة.

مراجع البحث ومصادره

١/ **أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني**: قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، ط١/ ١٩٩١، جدة.

٢/ **أمثال الحديث**، الرامهرمزي، تح: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية/ بيروت، ط١/ ١٤٠٩.

٣/ **تحفة الأحوذي**، محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية/ بيروت، (د.ت).

٤/ **جماليات الأسلوب**، د. فايز الداية: مطبوعات جامعة حلب، ١٩٨٢م

٥/ **شرح النووي على صحيح مسلم**، النووي أبو زكريا يحيى بن شرف، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٢/.١٣٩٢

٦/ **الصحاح** تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤/ القاهرة ١٤٠٧-١٩٨٧:

٧/ **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل، دار الفكر/بيروت، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بأسطنبول، ١٤٠١هـ.

٨- **صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري**، ترتيب وترقيم :محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، (د.ت).

٩- **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف**، أحمد زكريا ياسوف، دار المكتبي، دمشق سورية، ط١/ ١٤٢٣-٢٠٠٢.

١٠- **عمدة القاري** شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني.

١١- **غريب الحديث، القاسم** بن سلام الهروي ابو عبيد، تح: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط١/ ١٣٩٦.

١٢- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، محمد فؤاد عبد الباقي ومحي الدين الخطيب، دار المعرفة/ بيروت، ط ١٣٧٩.

١٣- **فيض القدير، المناوي عبد الرؤوف، المكتبة التجارية الكبرى/ مصر، ط١/ ١٣٥٦.**

١٤- **لسان العرب، ابن منظور الإفريقي محمد بن مكرم**، دارصادر/ لبنان، ط١/ د.ت.

١٥- **مجمع الزوائد، الهيثمي نور الدين، دار الفكر/ بيروت، ط/ ١٤١٢.**

١٦- **مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة/ القاهرة، تع: شعيب الأرناؤوط.**

١٧ - **المعجم الكبير**، الطبراني، تحقيق السلفي، دار إحياء التراث العربي ومكتبة ابن تيمية / القاهرة: ٣١٣/١٢ - ٣١٤.

ملخص البحث

هذا البحث محاولة لتلمّس النواحي الجمالية في ظاهرة أسلوبية تميّز بها البيان النبوي، من خلال إيراد ثلاثة نماذج حديثية شكّلت لنا لوحة فنّية لمثال المؤمن؛ أحدها متعلّق بالتمثيل لعلاقته بالقرآن، والثاني يرسم لنا مثالا لخيريته، والثالث يمثّل لنا حاله مع هذه الدنيا ، وفيه بيان للتناسب الدقيق بين الأسلوب النبوي وطبيعة المجتمع الذي بعث فيه، فصوّر لهم شخصيّة المؤمن المُرتضى في أبدع تمثال، وصوّر لهم مثاله بما يعهدون من محسوسات . وقد اكتفيت بهذه النماذج لألفت النظر إلى مثيلاتها ، فتأخذ حقّها من البحث والنظر .